الفصل الثالث
« من أدب الشمولية الإسلامية »
دراسة لأقدم وثائق الشعر الإسلامي
«المرحلة المكيّة»

اولا – عوامل نشأة الثقافة العربية

ثانيا – قضية الشعر في القرآن المكي

ثالثا– خريطة الشعر الإسلامي في المرحلة المكية

رابعا– شعراء المفاصلة والمقاومة الإسلامية في المرحلة المكية (نماذج وسمات بين المنهج والتطبيق)

١– النوفل بن الحارث بن عبد المطلب

٢– عمار بن ياسر

٣– عبد الله بن الحارث السهمي

٤ – العباس بن مرداس السلمي

٥– حمزة بن عبد المطلب

obeikandl.com

أولاً : عوامل نشأة الثقافة العربية

١ - المقدمة :

امتد وطن القبائل العربية - المترامي الاطراف - ما بين اليمن جنوبا والشام والعراق شمالاً، حيث الصحراء الممتدة ، والحياة الصعبة الخشنة ، وقلة الموارد الزراعية ، مما ازهد فيها الغزاة والطامعين وأوجد فيها مناخاً خاصاً ، يساعد القبائل العربية على الاستقلال ، والعيش الحر في أفق جغرافي مفتوح ، يعطي صاحبه الحرية في التكوين الذاتي بعيدا عن تأثير وضغوطات الحضارات المجاورة وثقافاتها ومذاقاتها .

وبهذا نمت الشخصية العربية نمواً قائماً على الاختيار ، الذي تدعمه الخبرة وتصوغه التجارب ، المعتمدة على توظيف الذكاء بين التأمل والفعل والممارسة والصبر ، وكان من ثمار ذلك الاختيار ، أنْ وصل العربي إلى اختيار ألفاظ لغته ووسائل تعبيره وتكوين ذوقه ، وانتقاء قيمه وعاداته واعرافه كما ينتقي الغواص الماهر حبات اللؤلؤ من الصدفات، عن خبرة وعناية ومعاناة . وهذا المسار هو قمة الصمود والثبات للأمم الأصيلة ، الذي يحفظ عليها ذاتها في لحظات ضعفها المادي ، امام الأمم المتقدمة عليها مادياً وحضارياً ، ويجعلها تتنظر فرصة ظهورها على مسرح التاريخ الإنساني ، ولو بعد حين ، وفعلاً كان العربي يملك من الخصائص ، ما يجعله الوارث الحقيقي لتلك الحضارات المجاورة ، التي كانت تملك الهياكل المادية ، المسكونة بالخواء المعنوي ، ومن امثلة تلك الخصوصية ، أنَّ العربي لا يشعر بالدونية وهو البدوي البسيط ، بل يشعر بالأنفة والاستعلاء على الرومي والفارسي ، فهو يأنف من تزويج بناته من الأعاجم ويرى أنّه اكرم منهم عرقاً ونسباً وفصاحة .

٢- العرب والاختيار الثقافي :

هذا الشعور بالاستقلال الذاتي والنفسي لدى العربي ، جعله يختار الفن الذي يتناسب مع طبعه وذوقه وادراكه للحياة ، دون أي ضاغط خارجي يدفعه إلى لعبة تقليد الفنون عند غيره ، أو الأخذ عنهم على طريقة الأمم الممسوخة ، التي لا تصدر عن ذاتها ، وتعيش عالة على ذوق غيرها .

ولهذا يعتبر الشعر فناً عربياً خالصاً في الاختيار ، رأى فيه العربي مرآة نفسه ، يعوضه عن جميع الفنون ، ولا تعوضه جميع الفنون عنه ، وفعلاً كان الذوق العربي موفقاً في اختياره الفنون الأدبية وبخاصة فن الشعر ، **لأن هذا الفن مميز عن كل الفنون التي عرفتها الانسانية : ١- بيسر الأداة وسهولتها (اللغة) لكل الظروف والبيئات ، ٢- واشباع الذوق الفني فيه لجميع الطبقات فهو فن ميسر للأغنياء والفقراء والمتحضر والمتخلف ، يناسب البدوي المتنقل والحضري المقيم ، ٣- يملك من سمات الخلود والبقاء ما يجعله مستمراً امام عوادي البيئة والزمان والحروب ، يحفظه الإنسان في ذاكرته كما يحفظ اسمه ٤- يجمع جميع مذاقات الفنون الأخرى داخل نسيجه، ٥- وهو اقرب الفنون الى الوعي ، والفكر والحكمة ، ٦- وهو الفن الوحيد الذي يعتبر بحق ضرورة من ضرورات التعبير عن النفس البشرية وسط خضم الحياة .**

٣- قيمة الشعر عند العرب :

وهكذا تمكن العرب عبر خبرتهم الطويلة وفي عدة قرون قبل الإسلام من انضاج هذا الفن ، حتى أصبح فنا مرموقاً له صدارة جميع الفنون عندهم ، فيه تركزت العبقرية العربية التي صقلتها حياة الصحراء ، فلم تجد فناً يفي بالتعبير

عن غرض الحياة العربية كفن الشعر ، فعوضت به نفسها عن جميع الفنون ، وملكت فيه من عبقرية البيان ودقة الوصف ، ما يغني عن الفنون الاخرى التي ابتدعتها الأُمم لنفسها ، وجعلت من الشعر ديوان العرب ، فكان الشعر تاريخاً لمشاعرها وذوقها واحساسها بالحياة ، وكان الشعر الأداة التي حفظت على العرب لغتهم وعلمهم وثقافتهم ووحدتهم ، اكتشفو فيه ذواتهم وعبروا به عن مواقفهم وقيمهم وكان كما يقول عمر رضي الله عنه « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحُ منه » .

وأما عن احتفاء القوم وتقديرهم لفن الشعر ، فحدث عن ذلك ولا حرج ، فقد وصل بهم الأمر إلى كتابة المعلقات وتعليقها على جدران الكعبة ، بعد أنْ علقت بقلوبهم وحفظها رواتهم . ولا عجب في ذلك فقد استقر هذا الفن في البيئة العربية وأصبح الموجه الأساسي للذوق العام ، بعد أنْ استقرت قواعده وأوزانه وقوافيه ، وأصبحت له مقاييسه الثابتة وأعرافه الفنية السائدة . يتحاكمون إليها في أسواقهم الموسمية : عكاظ ، ذي المجنة ، ذي المجاز ، حيث يتبارى الشعراء بعرض انتاجهم وتتلاقح افكارهم وتصقل مواهبهم ، وتنشر بين القبائل أشعارهم ، وبهذا تجذرت قيمة هذا الفن وارتفع مقامه في الذوق العربي ، حتى حارت العقول والأفهام في تفسير مصادر موهبته وإلهامه فنسبوه إلى العبقرية وإلى الأشياء الخارقة .

٤ - القرآن الكريم (المفاجأة الكبرى)

كانت الوثنية - عند الأُمم الأخرى - انحرافاً متأصلاً وعميقاً عن منهج عقيدة التوحيد ، ولذلك أقامت المعابد ، ونمت بينها صناعة التماثيل والأوثان ، وحاكت الأساطير حول آلهتها المزعومة ، أما وثنية العرب فهي وثنية سطحية تقوم على معرفة الله سبحانه وتعالى ، ولكنها تتخذ من الأصنام زلفى تتقرب بها إلى الله ، والمراجع للثقافة الجاهلية ، يجد أنَّ العربي كان في الأصل موحداً

لله ، ويرى عقيدة التوحيد ، تطل من وسط ركام الثقافة الجاهلية ، ولا أدل على ذلك من اعتزاز العربي بنسبه لإسماعيل عليه السلام وتمجيده للبيت العتيق ، كما أن الفلتات الكثيرة التي كانت تظهر في الشعر الجاهلي ، تدل على بقايا تلك العقيدة وتشير اليها ، رغم التشوه الذي لحق بها .

لقد كان لله حكمة بالغة في اختيار العرب لحمل رسالة الإسلام ، حيث اختار الرسول عليه السلام منهم ، واختار اللغة العربية لتكون لغة القرآن الكريم ، واختارهم ليكونوا جنود الرسالة ومبلغيها ، ولما مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليهم ببعثه النبي صلى الله عليه وسلم ، كان القرآن الكريم هو المعجزة المذهلة التي خاطب الله بها العرب ، ليكون التحدي لهم من جنس عبقريتهم ، وهم أهل الفصاحة والشعر وفرسان الكلمة ، وأقرب الشعوب إلى الفطرة في ذلك الحين ، ولقد كان القرآن الكريم مفاجأة هزت قلب العربي وأثارت فيه الدهشة والذهول ، يوم ظهرت تلك المعجزة في نبرة التحدي السافر الواضح ، أن يأتوا بسورة من مثله أو بضع آيات . يومها كان العربي يعرف مدلول لغته ويتذوق بيانها بوتيرة عالية ، وعندها سلم بعجزه وهو الفصيح أمام فصاحة القرآن ، وعرف أنّ هذا النسق اللغوي الجديد في الخطاب ، ليس من لغة البشر ، ويومها بدأت ثلة من المسلمين في دار الأرقم تنظيف نفسها من أدران الجاهلية وعقائدها .

وعندها بدأت قريش تشعر بالخطر على نفسها وأخذت تمكر مكرها في محاولة يائسة لِتحمي جاهليتها وتمنع حُصونها من خطر الدعوة الجديدة ، فجربت جميع الأساليب من ملاحقة واضطهاد ومفاوضة ، وحصار وتجويع ، ولم توفر شيئاً من أساليب الترغيب والترهيب ، لعلها توقف دعوة النبي- صلى الله عليه وسلم - في منتصف الطريق ، ولكنها لم تحقق شيئاً ، فلما أحست بعجزها ، بادرت إلى أُسلوب التحريف والتشويه والاتهام ، مرة بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كاهن ومرة بأنه ساحر ، ولما فشلت قالت بأنَّ محمدا شاعر نتربص به ريب المنون ، ووقعت في شبهة المقارنة بين القرآن والشعر

والنبي والشاعر ؛ ليتخذوا من ذلك حجة في حربهم الإعلامية ضد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وضد القرآن الكريم ، هذه أم جميل زوجة أبي لهب تعقد مقارنة بين فن الهجاء وسورة المسد، وهذا الوليد بن المغيرة يعترف بعجزه أمام القرآن ويعترف أنَّه ليس من قول البشر ، وهكذا قررت حكمة الله ان تفتح ملف هذه التهمة ، لتردَ عليهم، وتصحح المفاهيم الخاطئة ، وتضع الأُمور في نصابها.

ثانياً : قضية الشعر في القرآن المكي

١- المقدمة :

عندما تنزل القرآن الكريم مخاطباً العرب ، كان العربي يقدر الفصاحة ويملك ناصية البيان ، وكانت العرب تتنافس فيما بينها على الوصول إلى الدرجات العليا منه . وقد ارتقى الفن الشعري عندهم إلى مرحلة متطورة من الأداء والدقة ، حيث أصبحت له مقاييسه النقدية الثابتة في اوزانه وقوافيه وتعدد أغراضه ، وتفاصيل معانيه ، وأصبح البحث عن الابتكار وتحريه من مقاييس المرحلة ، لعراقتهم في ذلك الفن . واستطاع العربي بما عرف عنه من صفاء الذهن وحب التأمل وتراكم الخبرة ، أنْ يدرك الفروق الدقيقة للمعاني في لغته بصورة مذهلة ، تكشف عن مدى تعلقه بها وتفاعله معها ، فهذا احد الأعراب عندما سمع بدعوته صلى الله عليه وسلم سأل إلى ما يدعو صاحبكم ؟ قالوا له يدعو إلى « لا اله الا الله » فكان جوابه : « إذاً تقاتله عليها العرب والعجم » وهذا دليل على ادراك العربي لمدلول لغته ودقائق اسرارها.

ولما فاجأه القرآن ببيانه ، وأعجزه بنوعه المتميز ، كان يدرك الفارق بين نسق الشعر ونسق النوع البياني الجديد الذي جاء به القرآن الكريم .

وكان كبراء القوم – من المشركين – يدركون هذا ويعترفون به ، وتنقله مصادر التاريخ عنهم ، فهذا الوليد بن المغيرة يقول في لغة القرآن الكريم « ان

له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وأنه ليعلو ولا يُعلى عليه »[1] وشهادة اخرى للنضر بن الحارث « والله ما هو بالشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا اصنافه كلها هزجه ورجزة .. والله لقد نزل بكم امر عظيم»[2] .

نعم هم الخبراء في فارق القرآن الكريم عن الشعر ، ولكنه الكفر والعناد والدفاع عن المصالح، يدفعهم للوقوف في وجه الدعوة ، ومقاومة تأثير القرآن الكريم على قلوب السامعين بحملات التشويه لوضع العراقيل أمامها .

ومن هنا شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تفتح ملف هذه الشبهة التي قارن فيها العرب بين النبي والشاعر ، والقرآن الكريم والشعر ؛ لتصحيح الأفهام وتنوير العقول وإحقاق العلم ، الذي يكشف التضليل ويعري الشبهات ، وهذه هي حيوية القرآن في معالجة الانحراف الذي يقع فيه البشر ، ينزل منجما حسب الحوادث وأحوال المخاطبين وأسباب النزول ، لأنّه جاء لإلغاء واقع جاهلي وإنشاء واقع إسلامي ، من خلال معالجة انحرافات الفهم البشري ، حسب الحاجة ، وبقدر الحاجة في وقت حصولها لا قبل ذلك ولا بعد ذلك .

٢- الآيات الكريمة في المرحلة المكية : (التي ورد بها كلمة الشعر والشاعر).

١- قال تعالى ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، ان هو الا ذكرٌ وقرآن كريم** ﴾٦٩يس(مكية) .

٢- قال تعالى ﴿ **بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر** ﴾ ٥ الانبياء (مكية) .

٣- قال تعالى ﴿ **ويقولون ائنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ ٣٦ الصافات (مكية) .

---

(١) انظر «تفسير في ظلال القرآن عن ابن اسحاق (سورة الحاقة).

(٢) المصدر السابق.

٤- قال تعالى ﴿ **ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ ٣٠ الطور (مكية) . ٥- قال تعالى ﴿ **وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون** ﴾ ٤١ الحاقة (مكية) .

٣- شبهة المقارنه بين - النبي صلى الله عليه وسلم - والشاعر:

من خلال مراجعة كتب التفسير لهذه الآيات الكريمة ، يظهر للباحث طبيعة الخطاب القرآني الكريم الموجه للعرب ؛ لكشف المغالطات وايضاح الحقائق من خلال مصادرها وغاياتها : فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس شاعراً ، لأنّه يتلقى القرآن الكريم من مصدر علوي خارج عن مشاعره وإرادته ، وفي هذا تفريق وتوضيح ، لطبيعة الشاعر الذي يصدر عن مشاعره ؛ لأن الشعر تعبير عن الرغبات والمشاعر والأهواء و النوايا والمواقف ، وهو قيمة لإحساس الشاعر بالحياة من حوله ، أما النبي - صلى الله عليه وسلم - فعلاقته بالقرآن هي علاقة المبلغ الأمين الذي يتلقى رسالة ربه ويبلغها للناس ﴿ **وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى** ﴾ (٤،٣ النجم) ولذلك فالشعر لا يليق بمقامه ووظيفته ، لأنَّ للشعر منهجا غير منهج النبوة ، يختلف الاثنان في المصدر والغاية ، النبي انسان مكلف بنقل الأمر الرباني على منهج ثابت ، لا يملك فيه لأمر نفسه شيئاً ، ولا تختلط مشاعره بكتاب الله سبحانه وتعالى ، ووظيفته التلقي والتبليغ ، لا يملك من معنى القرآن الكريم ومبناه شيئاً ، والخلاصة في هذا :

أن النبي (وما ينطق عن الهوى) والشاعر (ينطق عن الهوى)

٤- الشبهة الثانية المقارنه بين الشعر والقرآن الكريم :

ويخاطب الله سبحانه العرب ليتعلموا الفارق بين الشعر والقرآن الكريم ، من خلال المصدر والغاية أيضاً ، موضحاً لهم « ان هو إلا ذكر وقرآن كريم » غايته هداية البشرية إلى العقيدة الكاملة الشاملة التي تفسر الحياة ، وتدعوا الإنسان

لعبادة الله ، على منهج واضح بيِّن وشريعة تقنن له شؤون حياته ، وتوصله إلى سعادة الدارين ، ومصدره ليس من محمد ولا من مشاعره ، وانما هو كلام الله سبحانه وتعالى الى خلقه ﴿**وما هو بقول شاعر قليلاً ما توقنون**﴾ .

الشعر يصدر عن ذات الشاعر وغايته التعبير عن نفس قائله .

والقرآن الكريم كلام الله المنقول مبنى ومعنى من الوحي الكريم إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – غايته هداية البشرية وإقامة أمره وتذكيرهم بمسؤولية الحساب .

٥– المستخرجات الشرعية الأخرى في قضية الشعر من هذه الآيات الكريمة :

١– يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **الرحمن ، علم القرآن، خلق الانسان ، علمه البيان** ﴾ سورةالرحمن (١–٢) ان الله سبحانه وتعالى الذي خلق الانسان وأحيا قلبه بالمشاعر ، وأوجد عنده القدرة على الإبانة والإفصاح والتعبير عن نفسه ، يريد ان يكشف مغالطات كبراء المشركين ، في تضليل الناس عن حقيقة القرآن الكريم ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن هدف الآيات الكريمة هو تعطيل مسيرة هذا الفن واستئصاله من الحياة ؛ لأنّ الشعر فطرة ربانية ؛ ولأنّ الله علم البيان وهدف البيان ، هو التعبير شعراً ونثراً ، وفي سكوت القرآن الكريم عن الشعر وقواعده واوزانه ما يقر العرب على فنهم ، ولا نلمس من الآيات الكريمة ما يفيد التهوين من أمر الشعر او تحقيره .

٢– ويُفهم من الآيات الكريمة ايضاً ايضاح طبيعة الفن الشعري للعرب ، بعد ان غمض عليهم فنسبوه إلى العبقرية والأُمور الخارقة ، من خلال عملية رفض المقارنة بين القرآن والشعر في المصدر والغاية .

فالشعر كلام « ينطق عن الهوى » والقرآن « وحي يوحى » وفي كشف

وتفسير الملكة والموهبة الشعرية وأصولها ما يصحح كثيراً من المقاييس القائمة لهذا الفن في أذهانهم ، ما دام ان الشعر قد حصر بين الآيتين الكريمتين ﴿**وما ينطق عن الهوى**﴾ ﴿ **علمه البيان** ﴾ ، لأنَّه بيان يعبر عن الهوى والمشاعرالبشرية .

٣ – الشعر فن ينطلق من الذاتية والنسبية وإدراك الشاعر للدنيا من خلال ذاته ، ولهذا فقد ينحرف الشاعر ويجر عنان الموهبة الفطرية الربانية لخدمة المصالح والاهواء ، ولابد للاسلام أنْ يتدخل ليصحح مسيرة توظيف هذه الموهبة وايضاح المسار الحلال لها ؛ ولكن التصحيح يرتبط اولاً بقضية أُولى وهي تصحيح العقيدة ، وعندها يسهل على النفوس الانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى ، ولكن الأمر سابق لأوانه ، لأن المرحلة المكية هي مرحلة بناء العقيدة في النفوس ، والمسلمون يعيشون في مجتمع مكة الجاهلي افرادا مبعثرين ، ولا يملكون التعبير أو إقامة الأحكام فيه .

ثالثاً : خريطة الشعر الإسلامي في المرحلة المكية :

١– النشأة والتكوين

كان المحور الرئيس والهدف المقصود ، الذي دارت حوله آيات القرآن الكريم في المرحلة المكية، محور بناء العقيدة الإسلامية في النفوس ، ودثر العقائد الجاهلية المنحرفة ، وهذا هو حجر الأساس في بناء الإسلام الشامخ .

والتغيير المطلوب لا يأتي بإلقاء الأوامر ، وانما يبدأ بتغيير المعتقد ، لأن السلوك البشري مبني على المعتقد ، فإذا صلح المعتقد ، صلح السلوك البشري تبعاً له ، وعندها يسهل على النفوس التي استوعبت العقيدة أن تتلقى الأوامر والتشريعات الربانية بالرضى التسليم .

والباحث عن الشعر الإسلامي في هذه المرحلة التربوية ، يجد أنّه لم يكن هدفاً مقصوداً عند المسلمين في تلك الفترة ، بل كان الهدف المقصود والمحور المنشود هو بناء العقيدة وتعميق الإيمان في النفوس ، أما ما يخص بناء المجتمع المسلم من تشريعات وسياسة وجهاد وعلم وثقافة وفن، فكله تأخر للمرحلة المدنية .

ولذلك كان الشاعر المسلم يمارس الشعر كوسيلة من وسائل التعبير العفوي عن ذاته ، اثناء المعاناة وعندما يشعر بثقل الواقع ، لشدة بطش الجاهلية ، كحالة من حالات التفريغ ، التي يكتسب بها نوعاً من انواع التوازن النفسي المريح ، امام مرارة الواقع وعتو الجاهلية وغطرستها .

ومن خلال المراجعة السريعة للمصادر القديمة ، يجد الباحث أنّه لم يصل الينا من شعر الدعوة الإسلامية في تلك الحقبة إلاّ أقل القليل ، وهذا القليل لا يبل ظمأ الباحث ولا يشفي غليله في البحث والتنقيب.

ومن الأسباب التي نُرجع اليها قلة رواية الشعر الإسلامي في تلك الفترة من الزمن ، هو حالة عدم الاستقرار والاضطهاد التي لحقت بالمسلمين ، وكان من ثمارها خنق كلمتهم وملاحقة دعوتهم ، ولهذا ضاع كثير من التاريخ الشعوري لمشاعر المسلمين لضياع ذلك الشعر ؛ كما أنَّ المنطق العلمي السليم يقول بأن مشاعر الإنسان لا تنفصل عن تفكيره ، والمسلمون في ذلك الوقت كانت قلوبهم في صدورهم ، تحمل مشاعرهم وهمومهم ، فأين ذهبت أشعارهم ؟! وحيث ان مصادر العهد المكي لا تسجل إلا القليل منها ، بعض الأبيات ، وبعض المقطوعات التي لا تغطي الأحداث الكبرى : لقد ضاع شعرهم في أتون المرارة وسرية الدعوة ، وشدة الحصار المضروب عليها.

كان الهدف من هذا أنْ نقول : أنّ الإرهاصات الأولى للشعر الإسلامي ، بدأت في المرحلة المكية وفي فترة مبكرة منها وأهم ما يتميز به شعر هذه المرحلة :

١- هو شعر تعبير عن الذات والمعاناة ، يأتي عفو الخاطر وتحركه دوافع التفريغ والبحث عن التوازن والرغبة الداخلية في نقل الاحساس و المعاناة .

٢- هو شعر غير موجه ، ولا يدفعه القصد والعمد ، ويستعمل قوالب الشعر العربي ومقاييسه وأوزانه ، كما هو مألوف عند أهل الجاهلية، ولم يتدخل القرآن في توجيهه في المرحلة المكية وإنما تأخر توجيهه للمرحلة المدنية .

٣- يُعتبر هذا الشعر أول تجربة من تجارب شعر المقاومة في الأدب العربي بكل ما تحمله كلمة المقاومة من معانٍ وظلال .

٢- مؤثرات المحيط الثقافي

١- وأول ما نشير اليه من مؤثرات المحيط الثقافي التي تركت أثرها على شعر المسلمين في هذه المرحلة ، هو معركة القرآن الكريم مع مشركي العرب عندما تحداهم ، واعترفوا بعجزهم امام بلاغته ، ورد شبهتهم التي حاولوا فيها ان يربطوا عقد مقارنة بين القرآن والشعر ، فلفت نظرهم إلى استحالة المقارنة لاختلاف الإثنين في المصدر والغاية ، وفي عزوف القرآن الكريم عن توجيه الشعر في تلك المرحلة ، ما فهم منه المسلمون الأوائل الاستمرار في تجاربهم الشعرية والتعبير عن ذواتهم بعفوية تامة قائمة على المبادرة الفردية لكل من كان يملك الموهبة منهم .

٢- الشاعر المسلم المكي عبر عن نفسه ومعاناته ضمن مقاييس البيان العربي السائد عند العرب في شعرهم ، ولذلك فهو لا

يخترع فناً جديداً وانما يوظف فناً قديماً وعريقاً عند العرب ويطوعه في التعبير عن نفسه وعقيدته ، لأنه لا يملك المقاييس الإسلامية الشرعية لذلك الفن في تلك المرحلة .

٣- الشعر فن يقوم على التعبير عن مشاعر النفس ونواياها ، وعندما تستقيم العقيدة تستقيم المشاعر والأهواء والنوايا، وهكذا كانت قدرة العقيدة الإسلامية في سيطرتها على قلوب اتباعها ؛ مما جعل الشعر الإسلامي انعكاساً للصفاء والنقاء الذي تعلمه الشاعر المسلم من مرحلة بناء العقيدة في النفوس في مكة .

٤- التجديد لا يبدأ في أبنية الفن الشعري واخيلته واوزانه ومقاييسه ، وانما يبدأ التجديد في المضامين والمعاني وهذا ما فعله الشاعر المسلم حيث ادخل المعاني والمضامين والأفكار الإسلامية في أشعاره متأثراً بالمحور الرئيس للمرحلة المكية وهو البناء العقيدي .

٣- التأريخ لمرحلة الشعر المكي (الشعر غير الموجه)

لا يختلف المؤرخون على بداية المرحلة المكية ، فهي مرتبطة ببعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – ولكن اللبس والغموض قد يكتنف تحديد نهايتها وإن اتفق المؤرخون على اعتبار الهجرة النبوية الشريفة هي نهاية هذه المرحلة وهو اتفاق لا غبار عليه ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، إلى متى امتدت سمات المرحلة المكية وتأثيرها ؟ وإلى أي مدى بقيت هذه السمات بعد الهجرة الشريفة ؟! وهو سؤال يدور حول المرحلة الانتقالية ، التي تعتبر امتداداً للمرحلة المكية واستعداداً للمرحلة الجديدة (المدنية).

وفي ظننا أنّ الأمر الذي يساعد على تحديد ذلك هو علائم محددة لعل من

أهمها ، هو انتهاء المرحلة التعبيرية الحرة ، وظهور الشعر الموجه ، الذي طلب فيه الإسلام من الشعراء المسلمين التخلى عن كثير من الأُمور الشعرية، اكثرها يخص المضامين والمعاني من جانب وبعضها يخص بنية الفن، وهذا الأمر لم يكن إلا بعد غزوة بدر ، يوم انتصر المسلمون وعادت قريش تجر اذيال الخيبة ، وتتجرع مرارة الهزيمة، وتبكي قتلاها ، وعندها اخذت تحرض الشعراء على هجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهجاء المسلمين ، وتحول الفن الشعري إلى سلاح يخدم مصالحها ، في حرب إعلامية ضروس ، لتنفر القبائل عن الإسلام وتهون من شأن المسلمين ، عندها بدأت عملية توجيه الشعر وتصويب مسيرة هذا الفن ووضع المقاييس الإسلامية والشرعية له لتوظيفه في خدمة الدعوة الاسلامية ، بعد أن يدرك الشعراء المسلمون ما يريده الإسلام من هذا الفن ، وبهذا بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – يشرف بنفسه على توجيه مسيرة هذا الفن ، ويأخذ بيد الشعراء أمثال حسان وغيره ، ثم تنزلت آيات الشعراء من (سورة الشعراء) لتضع الحكم النهائي في ضرورة توجيه هذا الفن لخدمة الإسلام .

وعلى هذا الاعتبار تعتبر بعض النصوص التي قيلت على أرض المدينة قبل غزوة بدر تابعة لشعر المرحلة المكية ، لأن الحد الفاصل بين الشعر المكي التعبيري والمدني الموجه بتوجيه الفن الإسلامي الشمولي هو غزوة بدر ، ومن هذه النصوص المدنية المولد ، المكية المرحلة ، التعبيرية الطابع ، نشيد الإسلام المشهور (طلع البدر علينا)[1]. وحنين بلال رضي الله عنه إلى مكة (ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة) وقصيدة (الهجرة)للشاعر الكفيف أبي احمد بن جحش شقيق أم المؤمنين زينب .

---

(١) والأظهر من الروايات أن هذه التحية كانت بمناسبة قدوم النبي عليه السلام مهاجراً من مكة إلى المدينة (عبدالله الحامد/كتاب شعر الدعوة، مرجع سابق ص ١١٢).

٤- أشهر شعراء المرحلة المكية

وفي هذا الجدول أشهر شعراء المرحلة ومطالع القصائد مع تحديد موضوع القصيدة أو عنوانها

١- ذباب السعدي : عنوان قصيدته (صنم محطم).

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى وخلفت (فراضا) بدار هوان

٢- الطفيل بن عمرو الدوسي : عنوان قصيدته (انتقام وحرق صنم).

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادك

٣- العباس بن مرداس السلمي : (أمنت بالله) .

لعمرك إني يوم أجعل جاهلاً « ضماراً » لرب العالمين مشاركا

٤- عسكلان الحميري : (إسلام غائب).

أشهد بالله ذي المعالي وفالق الليل والصباح

٥- قيس بن نشبه (تابعت دين محمد) .

تابعت دين محمد ورضيته كل الرضا لأمانتي ولديني

٦- حمزة بن عبد المطلب (آيات بينات) .

حمدت الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيف

٧- النوفل بن الحارث بن عبد المطلب (براءة) .

إليكم إليكم إنني لست منكم تبرأت من دين الشيوخ الأكابر

عمار بن ياسر : (صبر على تعذيب) .

جزى الله خيراً عن بلال وصحبه عتيقاً وأخزى فاكها وأبا جهل.[1]

---

(١) جميع هذه القصائد منقولة عن كتاب (شعر الدعوة الإسلاميّة في عهد النبوة والراشدين) عبدالله الحامد / الرياض.

رابعاً : شعراء المفاصلة والمقاومة الإسلامية في المرحلة المكية (نماذج وسمات بين المنهج والتطبيق)

١- الأنموذج الأول : النوفل بن الحارث بن عبد المطلب[١] (مفاصلة مع الجاهلية) :

إليكم إليكم .. إنني لستُ منكمُ — تبرأتُ من دينِ الشيوخِ الأكابرِ
لعمُرك ما ديني بشيءٍ أبيعهُ — وما أنا إذْ أسلمت يوماً بكافرِ
شهدت على أن النبي محمداً — أتى بالهدى من ربهِ والبصائرِ
وأَنَّ رسولَ اللهِ يدعو الى التُقى — وأَنَّ رسولَ اللهِ ليس بشاعرِ
على ذلك أحيا ثم أُبعث (موقنا) — وأثوي عليهِ ميتاً في المقابرِ

ومن خلال القراءة التحليلية لهذا النص تلمح الخط المقصود والمحدد للمرحلة المكية ، وهو خط التربية وبناء العقيدة ، ونقل المسلم من حالة الولاء السائدة في المجتمع الجاهلي إلى الولاء للعقيدة الإسلامية ، ويكشف هذا النص مقدار التفاعل القائم بين المسلم ودينه وانسلاخه من عقائد الجاهلية والبراءة منها والمفاصلة الواضحة مع عقيدة الآباء ، إنه يرميها وراء ظهره كما يرمي الثوب البالي دون أسف عليها ، ونرى من خلال النص بعض ملامح المعركة الإعلامية الدائرة بين قريش والقرآن الكريم، واتهامهم للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر (وان رسول الله ليس بشاعر) ثم يسجل الشاعر موقفه بمفاصلة واضحة تعبر عن تركه وانفصاله ومواجهته لعقائد الجاهلية ، واعتناقه لعقيدة التوحيد التي يثوي عليها ميتاً في قبره ، ثواء المطمئن الواثق بصدق عقيدته ولقاء ربه ، وباسلوب يجمع بين ميراث البيان العربي وبلاغة القرآن الكريم

---

(١) كتاب (شعر الدعوة الإسلاميّة) جمع وتحقيق عبدالله بن حامد الحامد / الرياض اشراف عبدالرحمن رأفت الباشا.

obeikandi.com

ويستفيد منه في تقديم موقفه وحالته التعبيرية .

٢ - الأنموذج الثاني : عمار بن ياسر (معاناة وثبات ومقاومة)(١)

جَزَى اللهُ خيراً عن بلالٍ وصحبهِ عتيقاً ، وأَخزى فاكهاً وابا جَهْلِ
عشيةَ هما في بلالٍ بَسَوءةٍ ولم يَحْذَرا ما يحذرُ المرءُ ذو العقلِ
بتوحيدِ ربِّ الأنام وقوله : شهدت بأن الله ربي على مَهْلِ
فإن يقتلوني ....يقتلوني فلم أكُنْ لأشركَ بالرحمنِ من خيفةِ القتلِ

وهذا النص للصحابي المعروف بصبره ، والذي لاقى صنوفاً من العذاب هو ووالده وأمه سمية ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) نعم هو الصحابي المجاهد عمار بن ياسر ونلمح من خلال هذه القصيدة اختلاط المحور التربوي مع المعاناة والاضطهاد ، فمن أجل عقيدة التوحيد يتحمل أمثال عمار وبلال وغيرهم العذاب ؛ لضعف ناديهم في قريش، ولكن القصيدة تعكس لنا ثمار العقيدة في النفوس والواقع في أول بيت من أبياتها ، إنّها الأخوة في الله التي جمعت القلوب على العقيدة ، بلال وعمار يقدمون أنفسهم قرباناً لله ، وأبو بكر (عتيق) يقدم ماله ليفك الرقاب من قيد العبوديّة ، وهنا نلاحظ انطلاق لسان عمار بالدعاء لأبي بكر بالخير والجزاء من الله سبحانه وتعالى والخزي للفاكه بن المغيرة وأبي جهل . وما هو ذنب بلال حين يعذب، عند هؤلاء السفهاء ، لقد نبذ بلال منهج الجاهليّة ، واعتنق الإسلام، وانحاز لدين الحق ، وثبت عليه ، وتحدى الجلادين: (أحدٌ .. أحدٌ) ، (والله لو وجدت كلمة تُغيظكم أكثر منها لقلتها) . ونجد عماراً يؤكد على قضيّة الثبات ويقاوم الضعف ويرتفع على الألم طالباً لما عند الله ، لقد أتت العقيدة الإسلاميّة أُكلها وثمارها من خلال معادن هؤلاء الصابرين ، الذين صمدوا في وجه الفتنة والشدة ، فكان شعرهم صورة صادقة للعقيدة التي استقرت وحطت رحالها في قلوبهم .

---

(١) المرجع السابق.

٣- الأنموذج الثالث: عبدالله بن الحارث السهمي (اضطهاد وتشريد)(١)

يا راكباً بَلَّغنْ عنيُ مغَلْغَلةً — مَنْ كانَ يَرْجو بَلاغ اللَّه والدين
كلَّ امريءٍ من عبادِ الله مُضْطَهدٍ — ببَطْنِ مكَّةَ مَقْهورٍ ومَفتُونِ
أَنَّا وَجَدْنا بلادَ الله واسعةً — تُنْجي من الذُّل والمخْزَاةِ والهُونِ
إِنَّا تَبِعنا رسولَ الله واطَّرَحُوا — قولَ النبي وغالوْا في الموازينِ
فَاجعل عذابَك في القوم الذين بَغَوْا — وعائذٌ بك أَنْ يَغْلوُا فيطغُوني

وهذا النص لصحابي جليل سطت سياط الجلادين على جلده فتعذب صنوف العذاب ؛ مما اضطره للهجرة إلى الحبشة مرتين ، ونلاحظ أنّ نصه من أقْدم النصوص المروية عن المرحلة المكية. وهو نص نادرشاهد على حالة القهر والاضطهاد والمحاصرة ، حيث يعتبر الشاعر الهجرة منجاة من العذاب والهوان وانتظاراً للفرج ، وحيث أنّ الهجرة أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم للضعفاء الذين لم يجدوا لهم سنداً يحميهم أو عشيرة يُهابون بها ، فالهرب بالعقيدة وسلامة العقيدة هو هدف المرحلة ، وحيث ان الهجرة حفظ للطاقات الدعوية ، التي لا يمكن تشغيلها في الواقع المكي ، والتي يمكن أنْ تضيع هدراً.

ولا يظن ظان من دعاة فلسفة التراب (الوطنية) أنّ هؤلاء المهاجرين يمارسون السلبية لأنهم يفرغون طاقات الدعوة في الوطن (مكة) ويهربون بجلودهم ؛ لأن العقيدة الإسلامية والوطن والهجرة معادلة لها فهم آخر في الإسلام .

إن تحرير الفكر والقلب من عبودية البشر لبعضهم وتعبيد الناس لله وحده ،

---

(١) المرجع السابق.

هو الذي يوجد الشعور بالحرية والمساواة بين بني البشر ، وإذا وصل الناس إلى هذه المرحلة ، عندها تمتد أيديهم للواقع المحيط وتعيد صياغته ، بعد ان تحررت قلوبهم من الخوف ، إنه يعكس روح المقاومة والصبر وخروج المشركين على موازين الحق ، ويدعو الله أنْ يثبتَه وأنْ يحميه من طغيانهم ، وينزل بهم العذاب .

٤ - الأنموذج الرابع : العباس بن مرداس السلمي (إعلان إسلام وتحطيم صنم).(١)

لعمركَ إنِّي يومَ اجعلُ جاهلا ... «ضماراً» لِرَبِّ العالمين مشاركاً
وتَركي رسولَ الله والأوسَ حولَهُ ... اولئك أنصارٌ له ما اؤلئكا ؟
كتارك سهل الأرضِ والحَزْن يبتغي ... لِيَسْلُك في دَعْثِ الأمور المسالكَا
فآمنت بالله الذي أنا عَبْدُه ... وخالفتُ من أمسى يُريُد المهالِكَا
ووجهتُ وجهي نحو مكةَ قاصداً ... أُبايع نبيَّ الاكرمينَ المبارَكَا

وهذه تجربة أخرى للصحابي الجليل العباس بن مرداس ، يعبر فيها عن فرحته لاكتشاف الهدى ، ثم تحطيمه للصنم الذي كان يعكف عليه (ضُمار) وانكشاف الحق لبصيرته ، فقد سبق التغيير إلى فكره وقلبه أولا يوم اكتشف حقيقة الوثنية وانحرافها ، وكان اكتشاف الحقيقة تحطيماً لعقيدة الوثنية في تصوره وقلبه تلتها عملية تحطيم الصنم ، وعندها سمح لفكره وقلبه بنور التوحيد فخرج من الظلمات والضلال ، وهنا يلوم الشاعر نفسه على تأخره عن بيعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يوم سبقته الأوس في بيعة العقبة ، ويرسم الشاعر خطين فالسالك للإسلام يسير في خط سهل مستقيم مأمون العواقب ، والسالك للضلال يقطع السهول والجبال والوديان اعتباطاً ، يتخبط

---

(١) المرجع السابق.

obeikandi.com

في ضلاله ويهيم على وجه ، ثم يخلع ثوب الجاهلية ، لأنه مهلكة ويلبس ثوب العبودية لله (فآمنت بالله الذي أنا عبده) ويندفع نحو مكة ؛ ليهدم بنيان الجاهلية بانسحابه من ذلك البنيان ، وينضم إلى بنيان الإسلام فيضيف نفسه لبنة جديدة في علوه وشموخه.

٥- الأنموذج الخامس حمزة بن عبد المطلب :(إعلان إسلام واستعداد للذود عنه) (١)

حَمِدتُ اللَّهَ حينَ هَدَى فؤادي ... إلى الإسلامِ والدينِ الحنيفِ

لدينٍ جاءَ من ربٍ عزيزٍ ... خبير بالعبادِ بهم لطيفِ

إذا تُليَتْ رسائلُهُ علينا ... تحدر دَمْعُ ذي اللُّب الحَصيفِ

وأَحمدُ (مصطفىً فينا) مطاعٌ ... فلا تَغْشَوْهُ بالقولِ العَنيفِ

فَلاَ واللّهِ نُسلِمُه لقومٍ ... ولّما نَقْضِ فيهم بالسيوفِ

وَنَتْرُك منْهمُ قَتْلى بقاعٍ ... عليها الطيرُ كالوَرْد العُكُوفِ

ومن خلال نص حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - نلمح الفروق الفردية لطاقات الدعوة ، كل واحد من الصحابة يمثل نموذجا للتحرك بالدعوة حسب قدرته وما تيسر له من امكانيات ، وهنا نلمح نموذجا مختلفا ، يعلن إسلامه على ملأ من الناس متحدياً لكفار مكة ، يحمد الله على الهداية ، ويعطينا قيمة هذه العقيدة في قلبه ، فآيات الله لا يسمعها ذو لب إلا تحدر دمعه مما عرف من الحق المبين ، إنه تفاعل القلوب مع العقيدة التي علمتهم توحيد الله سبحانه وتعالى ، ومحمد الرسول الأمين المبلغ ، لا يُغشى بالقول العنيف ، كما فعل سفهاء مكة ، ولا بالحرب الإعلامية الكاذبة ، لو كانوا يعقلون ، ولو عقلوا لسجدوا لله شكرا ، وما دام الأمر قائما على منطق الغلبة ، فلا ضير على حمزة (اسد الله) أنْ يعلن لمن يحمون باطلهم، أنّه أَولى منهم بالدفاع عن حقه،

(١) المرجع السابق.

وحقائق السيرة واضحة في استفادة المسلمين من الطاقات القادرة على الحركة في بيئة مكة وظروفها امثال حمزة وعمر رضي الله عنهما .

٦- السمات المشتركة بين هذه النصوص :

١- تدور هذه النصوص من ناحية المضامين والأفكار والمشاعر حول قضية العقيدة الإسلامية والإيمان بها والثبات على معانيها ، ومقاومة ظلم المشركين والتحدي لهم في حالة من الرفض والمفاصلة ، تختلف باختلاف القدرات ولكنها موجودة لدى الجميع .

٢- ونلمح الشعرية غير الموجه والقائمة على الاجتهاد الفردي في التعبير ضمن معطيات العقيدة ومقاييس الفن الشعري عند العرب .

٣- أما من الناحية الفنية واللغوية ، فتمتاز لغة هذه المقطوعات بالسهولة واليسر والصور الفنية الشائعة ، وقلة الأبيات لعدة عوامل منها :

أ - تأثرهم ببلاغة القرآن الكريم ومحور العقيدة وهو أساس المرحلة .

ب - ليونة أهل الحواضر وميلهم إلى الفصاحة السهلة التي تختلف عن لغة البادية التي كانت تعنى بالسمو الفني والغريب وتحكيك الشعر .

جـ - ربما تأثرت لغة هؤلاء الشعراء ، بالتجربة التي يعايشها هؤلاء المعذبين ورغبتهم في التعبير عن المعاناة والإحساس ؛ لأنه ليس لديهم الوقت للبحث عن الترف الفني الذي يبحث عنه المستقرون .